الأدب في الرسالة القومية

بقلم رشيف خوري

ما رأيتني مقبلا على الكلام في موضوع الادب الا ذكرت قولا لابي عثمان الجاحظ : « ان مدار الامر والغاية التي يجري اليها القائل والسامع انما هي الفهم والافهام . »

السامع همه ان يفهم ، والقائل همه ن يُفهم . ولا بد في هذا كله من الوضوح ، ولا سيما الوضوح في ذلك الضرب من اللفظ الذي يسري اليه الغموض لا من كونه مهجورا عويصا ، وانما يسري اليه الغموض من كونه مطلقا لا يمثل معنى مقيدا بل يثير معاني تختلف باختلاف ما في الاذهان من سابق تصورات .

والرسالة القومية لفظ من هذا اللفظ ، كثيرا ما يتقاذفه المتجادلون ، وكثيرا ما يتوافقون بشكل مبدئي ، لكن ليجدوا انفسهم من بعدُ مختلفين بشكل عملي ، وما ذلك الا لأن توافقهم كان على ظاهر اللفظ ، بينما كان كل منهم يقصد بالرسالة القومية الى معنى آخر .

وهكذا أراني أتساءل ، اول شيء : ما الرسالة القومية ؟ واراني اجيب كما يخيل لي الواقع انه الحقيقة .

واقول : الواقع ، لأن الرسالة القومية عند شعب من الشعوب لا يصح الحديث عنها بالانقطاع عن واقع ذلك الشعب ، لأنها تتكيف بذلك الواقع تكيفا لا شكليا وحسب بل صميميا أيضا .

فما هو الواقع القومي فيما يتعلق بالشعب اللبناني ؟

يستتبع هذا السؤال فورا سؤالا آخر: أيكوّن اللبنانيون قومية خاصة ام ان قوميتهم عربية ؟ وأجيب مسرعا الى الجواب :

ان قومية اللبنانيين عربية رغم جميع محاولات الانكار **هي عربية لأن لغتهم عربية ، ولان ارضهم موصولة بأرض عربية ، ولأن تاريخهم متفاعل أقوى تفاعل مع تاريخ الشعوب العربية ، وكذلك اقتصادهم ، وكذلك روحيتهم، هذه الروحية التي نجد عنها تعبيرا فيما نسميه الادب اللبناني ، وهو برغم خصائصه المميزة لا يعدو ان يكون امتدادا للأدب العربي في قديمه وفرعا له في حديثه .**

اذن ، فالقومية اللبنانية عربية . وهذا لا يعني ان اللبنانيين اصلهم جميعا عرب . فالقومية العربية ما قامت في يوم على عرق ولا دم ، شأنها في ذلك شأن جميع القوميات التي شاركت في الحضارة واختاطت بشعوب الارض . ومنذ اقدم العصور تحدث النسابون عن عرب بائدة وعرب باقية ، وتحدثوا في العرب الباقية عن عرب عاربة ومستعربة ، وكان أغلب الجيل العربي الذي مثل النهضة العربية في القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) ينتمي الى العرب المستعربة .

ولنا ان نقول ان جيلنا العربي الذي أطلق عليه المرحوم ضاهر خيرالله الشويري اسم العرب العائدة هو أيضا جيل محدث من العرب المستعربة .

واذا قلنا ان القومية اللبنانية عربية ، فلا يعني قولنا ان اللبنانيين يفقدون بذلك حقهم ان يعيشوا في دولة لهم خاصة ، قرب قومية واحدة تعددت في نطاقها الدول المتآخية على نحو ما ننشد ان تكون عليه الحال في الدول العربية اليوم .

اذن ، — واعيد القول — ان القومية اللبنانية عربية . وليس في عروبة القومية اللبنانية ما يناقض مطمحا من مطامح اللبنانيين مع ما في ذلك العيش في دولة لبنانية خاصة تتآخى وشقيقاتها العربيات ، دولة لبنانية مستقلة حق الاستقلال . **بل ان قدرة اللبنانيين على انشاء مثل هذه الدولة منوط بالقومية العربية وانتصارها في صراعها مع الاستعمار لتنشىء للشعوب العربية دولا حقا مستقلة.**

ولئن كان في اللبنانيين قلة لا يفهمون بالاستقلال اللبناني الا استقلالها عن سوريا مثلا ، وعن مصر ، حتى لو أدى ذلك — وهو حتما مؤد — الى فقدان لبنان كل استقلال والى استسلام لبنان للاستعمار وخضوعه لأسرائيل ، فان أكثرية اللبنانيين الساحقة لن تقبل هذا المفهوم المجرم . **فالاستقلال الوطني اللبناني لا يمكن ان يكون له معنى الا الاستقلال مباشرة وغير مباشرة عن الاستعمار بجميع صوره ، والاستقلال مباشرة وغير مباشرة عن ربيبته اسرائيل ، والتعاون مع القومية العربية اصدق تعاون وأوثق تعاون ، في سبيل تحرر الدول والشعوب العربية جمعاء .**

هذه هي الرسالة القومية التي افهمها والتي اقصد اليها . انها الرسالة القومية ، العربية ، التحررية ! رسالة تنبعث من نقطة انطلاق واحدة هي التحرر التام وتعتمد على ركائز سبع متساندة متماسكة :

١ — قلع كل استعمار قائم في أيما بلد عربي .

٢ — صد كل استعمار يطمع في التسرب الى أيما بلد عربي .

٣ — محاربة الدس والتفريق والاستغلال الطائفي .

٤ — تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية التامة .

٥ — خلق النظام السياسي والاجتماعي الصالح وهو في رأيي النظام الذي يجمع بين الحرية والديمقراطية

والعدالة الاجتماعية .

٦ ـ اقامة التآخي والتعاون التام بين الدول العربيـــة

٧ ـ مكافحة العدوان أينما وجد وفي أيما صورة برز .

« والانسانية » ؟ أكاد أسمع قائلا يقول : « انك اكتفيت بالقومية ولم تأت على ذكر الانسانية » ؟ بل أين تراني كنت الا في صميم الانسانية ؟ فمن لا ينصر قومه اذا كانـــوا مستعمرين مضطهدين ولا يطالب لهم بحق التحرر وحق السيادة والسعادة في اوطانهم فليس بانسان وليستتر ما شاء بأن قوميته هي الجنسية البشرية ، وان وطنـــه هو الارض فانه برغم ذلك يبقى انسانا مزيفا ولم يصنع مـن عصب التحدي الانساني للظلم والباطل ، وانما صنع مـن عجين الفلسفات المائعة .

اني لا أعرف مبدأ انسانيا يمكن ان يعتنقه ابن شـعب مستعمر مضطهد الا ان يكون التحرر القومي محوره الذي عليـــه يدور !

* * *

ولكن أين نحن فى هذا كله من الموضوع ، موضـوعنـا : الادب والرسالة القومية ؟ وهل يكون الادب مسؤولا عـن الرسالة القومية ؟ بل أيكون الادب مسؤولا عن شيء ؟

لقد اعتدنا ان لا نحمّل الادب مسؤولية الا الاجـــادة الفنية من احكام تعبير واتقان تصوير . فاذا رأى ابـــن الرومي ذا لحية طويلة قدسالت وفاضت، فشبهها بمخلاة، ولكنها بغير شعير ، فذلك عندنا هو الادب الذي قد وفى فيه الاديب بمسؤوليته الكبرى : الابـداع الفـني . وما أريد أن أقلل من شأن هذا الضرب من المسؤولية ، ولكن الادب مســؤول عما هو ابعد واشد خطرا .

وهنا أسمح لنفسي ان ادخل فيغمار تجربة من تجارب شاعرنا العظيم أبي الطيب المتنبي .

خرج شاعرنا من حلب في السنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ) مغاضبا لسيف الدولة ، وانتهى به المطاف الى ان قصـد كافورا الاخشيدي في مصر ومدحه . وعلام قصد المتنبي كافورا ؟ وعلام مدحه ؟ أفكان ابو الطيب معجبا بالعبد ؟ بل أتراه كان معجبا بدولة الاخشيدي ، وهي من الـدول الشعوبية التي قامت في جسم الدولة العباسية فيعصرها الثالث ؟ لا ، فالمتنبي معروف عربي المنبت عربي الهوى . والمتنبي قد لقي في نشأته عنتا من الدولة الاخشيديـة هذه : حبسه واليها على حمص ، الامير لؤلؤ ، وضيق عليه حتى جرحه في كرامته وكبريائه واضطـره الى التـذلل والاستعطاف . اذن، علام قصد ابو الطيب كافورا ومدحه، وكافور ابعد خلق الله عن أن يثير في أبي الطيب اعجابا ؟ وما عمـل ابي الطيب والدولة الاخشيدية التي كرههـــا لشعوبيتها واذاقته الاضطهاد ؟ لا جواب ، الا ان نقول ان المتنبي بعد تركه سيف الدولة محنقا حفيظا ، قد استبدت به شهوة النكاية بالحمدانيين ، وعاد تدغدغه شهوة الرياسة التي دغدغته في عصر الشباب الاول ، فطمع في ان يوليه كافور ولاية ، وصرح بطلب هذه الولاية . ويذكر المؤرخون انه ارادها في الصعيد المصري او في مدينتنا اللبنانيـــة صيـــدا .

تلك تجربة اقدم عليها المتنبي مستهينا بقيمه الـــتي أخذ بها نفسه ، وبالتالي متجاوزا مسؤوليته امام نفسه . قيم يتراءى لنا وميض منها في ثنايا شعر المتنبي قبلمـا اتصل بسيف الدولة ويوم اتصل به وبعدما غادر حـلب . ألســنا نسمعه قبل اتصاله بسيف الدولة يقول :

لقـد تصبرت حـتى لات مصطبـر
فالآن أقحـم حـتى لات مقتحـم
بكـل منصـلت مـا زال منتظـري
حـتى أدلت لـه من دولـة الخدم

يعني بدولة الخدم الدولة العباسية والدول الشعوبية وينذر بأنه سيصلت سيفه ثائرا عليها . ثم ألســنا نسمعه قبل اتصاله بسيف الدولة ايضا يعود فيقول :

وانما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم
لا ادب عنـدهـم ولا حسـب
ولا عهـود لـهم ولا ذمـــم
بكـل ارض وطئتهـا امـــم
ترعـى بعيـد كـأنهـا غنـــم
يستخشـن الخـز مـن ملابسـه
وكـاد يبـري بظفـره القـلـم

يهجو الملوك الشعوبيين ويحمل على استبدادهم ويطالب للعرب بسلطة عربية يصلح عليها امرهم .

ثم بعد اتصاله بسيف الدولة ، ألسنا نسمعه يعـــرض بالخليفة العباسي في بغداد فيقول لسيف الدولة :

فيـا عجبـا مـن دائـل انـت سيفه
اما يتوقى شفـرتي مـا تقـلدا
ومن يجعـل الضرغـام للصيـد بازه
تصيّده الضرغـام فيمـا تصيـدا
رأيتك محـض الحـلم فى محض قـدرة
ولو شـئت كان الحـلم منك المهنـدا
ومـا قتـل الاحـرار كالعفـو عنهـم
ومن لك بالحـر الـذي يحفظ اليـدا
اذا أنت أكـرمت الكريم ملكتـه
وان أنت اكـرمت اللئيم تمـردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السـيف في موضع الندى

يحرض الامير الحمـداني على الخليفـة في بغـداد . ويستثيره للانقضاض عليه بالسيف ، فالسيف لا بد منه في المواقف التي تستوجبه ، واللئيم يتمرد اذا عومـــل بالكرم . يلمح ابو الطيب في ذلك الى ان الخليفة في بغداد لئيم ، والى ضرورة احتلال بغداد ، واعادة النفوذ العربي اليها ، وانقاذها من نفوذ لفرس البويهيين الذين كانـــوا يسيطرون عليها آنذاك .

واذا كنا في ريب من ان مثل هذه الافكار هي التي كانت تخالج سريرة المتنبي وتكمن وراء اعجابه العظيم بســـيف الدولة ، على اعتباره اياه بطلا عربيا جديرا باقالة العـرب من عثرتهم ، فلنسمع ابا الطيب في قصيدة بعث بها الى حلب غب عودته من مصر ، يخاطب الامير الحمداني بأصرح مما سمعناه بل بوضوح يقفل المجال دون كل جدال .

قال المتنبي وهو يتخيل نفسه في الطريق الى حلب :

كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدنا وانت السبيل
والمسمّون بالأمير كثير
والامير الذي بها المأمول
ليس الاك يا علي همام
سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر
وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الاعادي
ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من اعزه الدفع عنه
فيهما انه الحقير الذليل
انت طول الحياة للروم غاز
فمتى الوعد ان يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى أي جانبيك تميل ؟
قعد الناس كلهم عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا —
كالذي عنده تدار الشمول

فسيف الدولة هو الامير المأمول عند المتنبي على كثرة من يسمون بالامير . ذلك بأن سيف الدولة هو وحده الامير المناضل . والعراق ومصر تجدان الامن والدعة ، لأن خيول سيف الدولة وكتائب جيشه تقف سدا بوجه البيزنطيين من الشمال . ولو ان سيف الدولة تنحى لهم عن الطريق لربط البيزنطيون خيلهم بشجر السدر والنخيل في العراق ومصر ولاحتلوهما ، ولدرى الاخشيديون والعباسيون انهم حقراء اذلاء ولم يعزوا الا بفضل سيف الدولة . ولكن على سيف الدولة بعد اليوم ان ينهج نهجا جديدا ، فيتحول عن مكافحة الروم البيزنطيين الى مكافحة الروم الآخرين خلف ظهره ، يعني الاخشيديين والعباسيين

أفكان يجوز لأبي الطيب ان يتجاوز مسؤوليته امام نفسه ويستهين بالقيم التي دان بها فيقصد كافورا ويمدحه ويبدو كأن قد رضي عن الدولة الاخشيدية ؟

أفكان يحق له ان ينتهك حرمة هذه المسؤولية لمجرد ان سيف الدولة آذاه في كبريائه ولم يشف غليل الشاعر ممن حسدوه او عادوه وعاداهم عداوة شخصية ؟ لا لعمري ! ولا عبرة بما يقال من ان المتنبي ربما تقرب الى كافور والدولة الاخشيدية لينال غايته من الولاية ، ثم ينتقض على تلك الدولة . فقد كان كافور على ذكاء اوفر مما تصور المتنبي ، او هي طبيعة الاشياء ارادت ان تنتقم من المتنبي لهذا الاخلال بالقيم التي أحبها وآثرها . وما اريد ان اتشفى بالمتنبي وانا حزب له ، فضلا عن ان طبيعة الاشياء قد ثارت منه ثأرا بلغ الغاية ، فأخفق في مساومته العبد الاخشيدي ، ولم يمقت العبد بأكثر مما انتهى الى مقت نفسه :

أريك الرضى لو اخفت النفس خافيا
وما انا عن نفسي ولا عنك راضيا

مقت نفسه لهذه المساومة مع كافور ، فاعترف انه كان فيها فائل الرأي ، وانه وقع فيها كما يقع المريض في المرض غير مريد ولا مختار . أجل ، اعترف المتنبي صادقا نادما وان عز على كثير من دراسه ان يعترفوا بصدقه تحاملا عليه او انسياقا مع الاحكام الشائعة المتداولة .

فما اريد اذن ان اتشفى ، **وانما اردت ان اؤكد على مسؤولية الادب والاديب ، وانه ليس مسؤولا فقط عن تعبير بليغ او تصوير رائع ، انه ليس ملزما فقط بشروط توجبها عليه الحرفة ، بل انه لمطالب بالوفاء لقيم يدين بها .** ولذلك توخيت من هذا العرض لتجربة المتنبي مع كافور **ان أؤكد على المأساة التي يواجهها الاديب حين يخلع عنه المسؤولية الجدية ويستسهل المساومة في القيم التي اعتنقها فتتشوه عليه نفسه وتمسخ مسخا ، وبالتالي تضعف شهوته الى الخلق وقدرته على الابداع وتجف موارد الالهام وينابيع الروعة في ادبه ،** الا حين يصف مأساته الخاصة ، كما حدث للمتنبي بالضبط ، فهو في مدحه لكافور ، ثم عضد الدولة ، ما شئناه من صناع لبق الكلام ، ومن ممثل بارع ، يشعوذ في تضمين المدح ما يحتمل الهجو ، وفي الروغان من الموضوع ، ولكنه ليس ذلك الشاعر الشاعر الا في الاستطرادات تتصل بأشياء تعنيه وخواطر تخصه بل لقد هانت عند المتنبي نفسه ، تلك النفس التي تحدى بها الدنيا فقال : كذا انا يا دنيا ! وملأت عليه وجوده وشاءها ان تملأ على الناس وجودهم .

هانت نفس المتنبي عنده بعد مساومته مع كافور ، فاذا به في القصيدة التي ودع بها عضد الدولة البويهي يكيل له التعظيم ويعرض بغيره من الملوك ، ويسخو عليه بعواطف الولاء والوفاء وقد ظن شراح المتنبي ان يمدحه جادا صادقا وما فطنوا الى ان أبا الطيب كان متشائما يتوقع شرا يصيبه في تلك الرحلة من شيراز الى العراق ولا يبرىء الامير البويهي من شركة في هذا الشر . فلذلك عظمه وعرض بغيره من الملوك وسخا عليه بعواطف الولاء والوفاء على سبيل الزلفى والتملق . فاذا قال له :

ومن يظن نثر الحب جودا
وينصب تحت ما نثر الشباكا

فالمراد ليس التعريض بالملوك الآخرين وانما المراد حمل عضد الدولة على الحياء من ان يعامل الشاعر مثل هذه المعاملة ، فيغدق عليه العطايا بينما يبيت له شرا كالصياد الذي يغري الطير بالحب ليستدرجها الى الفخ . وكذلك حين يزعم لعضد الدولة انه ليس في طريقه سلاحا من رضى الامير يذعر الاعداء ، فانه انما يتملقه ويتزلف اليه خوفا ورهبة من شر يتوقعه في الطريق . ويبلغ ابو الطيب اقصى الشعور بهوان نفسه حين يقول :

وما انا غير سهم في هواء
يعود ولم يجد فيه امتساكا

ولماذا يصبح سهما في هواء لا استقرار له ؟ لأنه رضي ان يخلع عنه المسؤولية ويساوم في تلك القيم التي دانبها ففقدت نفسه المرساة التي كانت تركزها وتثبتها وتجعل لوجودها معنى ووزنا .

وهذا ينتهي بنا الى موجب آخر يقيد الاديب وادبه بالمسؤولية الصارمة امام قيم يصطفيها ويدين بها .

ان الاديب حين يختار ان يصبح لا مسؤولا فانه يؤذي القيم بقدر ما يؤذي نفسه وادبه ، فينزوي بنفسه ويضعف ويوهن قوة انصباب ادبه في النفوس ويوهي ما بينه وبين النفوس من تجاوب وتقبل .

وهنا يخطر لي تعليل لهذا الضعف في نفوذ الادبعندما نقول ان الناس لا يقرأون ، نقول ذهب عصر الكلمة ، انصرف الناس عن الشعر الى العلم ، نتساءل عن الوسائل التي تجعل اللغة العربية وسيلة اداء اطوع وأفعل كأنها ليست في اللغات من اقوى وسائل الاداء. نقول على الحكومات ان تخص الادب بالتشجيع ولكننا ننسى على ما يبدو لي ان نفوذ الادب ان كان رهنا برشاقة تعبير واناقة تصوير ، فهو ايضا رهن ــ وبقدر اوفى ــ بالقيم التي يشيعهاويخلص لها وهو ايضا رهن بشخصية الاديب يقتضيها الصدق في المسلك والاخلاص لتلك القيم .

وهل فكرنا لماذا تمتع ابو العلاء المعري طوال هذهالعصور بذلك الوقع البليغ الذي نحسه لادبه ، رغم ما يبهظه احيانا من التكلف والقصد الى الاغراب ؟

هل خطر لنا ان جانبا كبيرا من ذلك الوقع البليغ المؤثر انما يتصل بصدق شخصية المعري وشعورها بالمسؤولية امام ما اخذت به ذاتها من قيم ؟ والا فكيف نفسر اننا في أحيان ، نخالف المعري في الرأي ومع ذلك يهزنا حتى هذا!

واذن ، فنفوذ الادب قضية لا يمكننا ان نفكها من اخلاق الاديب متقيدة بالمسؤولية ، وعبثا نرجو ان يكون لكلمة الادب نفوذها حتى يكون لنا ادباء مسؤولون يعيشون الكلمة التي يقولونها ويستشهدون في سبيلها ، فينسجم ادبهم وشخصياتهم وتضفي شخصياتهم على ادبهم جمالا واشراقا يكسبانه بلاغة ومدى تأثير فوق ما يكسبه وغير ما يكسبه محض التصوير والتعبير بالغين ما بلغاه من الاناقة والرشاقة. ما معنى ان نحلم الاحلام متصلة بالحق والخير والجمال ، ما معنى ان نتغزل بالحرية والاستقلال ، ما معنى ان نتناول الحكام الفاسدين بالنقد والتقريع ثم نبيع ذلك كله بفتات عن مائدة اولئك الحكام ؟

وربما كان في هذا تضييق شديد على الادب والادباء ، فمن اين يعيشون

والجواب : ان من يلزم نفسه خدمة الحرية هو اول من يوشك ان يحرم حريته الفردية ، تحرمه اياها طبيعة الخدمة للحرية وما تقيده به من قيود .

ولم يؤذ الادب العربي فى ماضيه آفة كآفة التكسب . ولئن اختلفت صور التكسب اليوم ، فانه ما زال ينال الادب العربي بالاذى ، وبقدر من الاذى ان لم يكن أشد فليس أخف ولا أقل خبثا . ان الاديب لا حق له انيرتزق بأدبه . انه مسؤول عن رسالة يفي بها ، والرزق هو من هذه الاشياء التي تعطى له وتزاد ، والا فليصبر ، او فليلتمس رزقا من وجه غير وجه المساومة في ادبه .

أجل ، ان ادبنا العربي لن يكون له نفوذه قبل ان يعيش ادباؤنا ويموتوا مسؤولين عن قيم وشهداء لقيم !

على ان ثمة قيما اخرى ، وهذا يخرج بنا الى ماهية القيم التي يجدر بالادب ان يُسأل عنها وبالاديب ان يلتزمها بل ان هذا يدور بنا الى حيث بدأنا حديثنا، فلا نرى اقرب ولا أصح ولا اوجب من ان نقول **ان هذه القيم التي يجدر بالادب ان يُسأل عنها ، وبالاديب ان يلتزمها ، انما هيالقيم النابعة من الرسالة القومية العربية التحررية ، القيمالمشتقة من الطموح الشعبي الاصيل الى العدل والحرية ، الى الخير والجمال ، الى الحق والسعادة .**

ولكن لما كان العدل والخير والجمال والحق والسعادة أشياء غير قارة ولا جامدة ولا رسم لها معنى عملي يصح في العصور كلها ، وانما تختلف باختلاف دور عن دور ، وتتشكل صورا بين طور وطور ، فان الاديب ليس مسؤولا فقط عن الوفاء للقيم الفضلى التي اصطفاها ، وانما هو مسؤول ايضا عن معرفة المعنى العملي لهذه القيم في عصره بالذات . وقد حاولت جهد الطاقة ان ألم بمعنىعملي يصح في عصرنا لهذه القيم الفضلى حين عددت الركائز السبع التي تنهض عليها رسالة القومية العربية التحررية، وخلاصتها : محاربة الاستعمار والدس الطائفي ، وتحقيق الاستقلال الوطني ، وترسيخ قواعد الحرية الديموقراطية والعدالة الاجتماعية ، واقامة التعاون التام بين الدول العربية ، ونفي العدوان . فهذا في رأيي هو المعنى العملي للقيم التي يطالب بها الادب العربي والاديب العربي في عصرنا ، وهي كلها توجب المعرفة الدقيقة المعمقة .

فليس بمغني الاديب ، ولا سيما في عصرنا ، ان تكون عدته تعبيرا طليا وشعورا متحفزا ، وخيالا متحفزا ــ على شدة الحاجة الى هذه العدة كلها ــ وانما ينبغي فيه ان يأخذ من المعرفة الدقيقة المعمقة بالنصيب الاوفر ، فمجرد التعلق بالقيم الفضلى ، والفنية فى التعبير ، وقوة الخيال والشعور لا تعصم الاديب منالشطط فيممارسة مسؤوليته الكبرى ، ولا تدله بوجه عملي كيف يجعل ادبه وثيق الصلة حميم التفاعل بالطموح الشعبي الى العدل والحرية ، الى الخير والجمال ، الى الحق والسعادة . المعرفة وحدها هي التي تعصمه هذه العصمة ، وترشده هذا الارشاد ، لأنها تساعده على ان يفهم المعنى العملي لهذا العدل والحرية والخير والجمال والحق والسعادة ، فلا يخدع بالمظاهر ، ولا يتفاءل التفاؤل الاحمق ، ولا ييأس اليأس الاشد حمقا، بل يميز بادراك واقعي وروح نضالية قوى البناء الناشئة وقوى الهدم المتقهقرة ، وان بدت غالبة ــ وهنا فلنتخذ لنا مثلا اديبا مرموقا كولي الدين يكن . فمن ذا يشك في ان الرجل قد شغف حبا بقيمة من القيم العليا هي الحرية

وتحدى السلطان عبد الحميد وحمل عليه بقلمه حمـــلات شعواء وذاق في حربه مر الاضطهاد والحرمان .. من ذا يشك في ان ولي الدين رغب صادقا في ان يسلك في معركة الحرية مسلك الجندي الامين المسؤول عن قضية يقدسها ثم من يشك فيما اوتي ولي الدين من حظ في رونق التعبير ونشاط الخيال وزخر الشعور .

ولكن مع ذلك كله كان حظ ولي الدين من المعرفـــة بحقيقة الحرية ضئيلا . فهو لم يدرك مثلا ، ان الحريـــة اعمق عمقا وابعد بعدا من مظاهر التنظيم والاصلاح عـــلى مصر ، ولم يعلم ان هذه المظاهر في التنظيم والاصلاح لم تكن ، بالدرجة الاولى ، الا لتحسين حياة المستعمرين في البلد المستعمر . كلا . ولا كانت الا لضمان شروط افضل للاستثمار الاستعماري والتحكم في البلد المستعمر وشعبه فأيد ولي الدين الاحتلال الانكليزي لمصر ، وتصور مصر تصاب بكارثة من التدهور والتأخر اذا فقدت نعمـــة الاحتلال البريطاني . وقد يكون اعتقد ذلك جادا ، صادقا، مخلصا ، ولكن هذا لا يغير شيئا من الواقع ان ولي الدين قد خدع عن الحرية ، فالحرية تأبـــى بطبيعتها ان تكـــون عطاء من الغير ، فكيف اذا كان مستعمرا تأبى طبيعتـــه ان يعطي الحرية ؟ وكل اعمال التنظيم والاصلاح اذا لـــم يبدعها شعب مستقل بارادته وجهـــده ويتصرف بخيراتها لنفســـه ، فلا قيمة لها ولا معنى لها سوى انها قيد ودين يرزح تحت ثقلهما الشعب .

وهكذا نرى ان ولي الدين ، على شغفه بالحرية ، قـــد انتهى الى موقف تنكر فيه للحرية اقبح تنكر، وأخل شـــر اخلال بمسؤولية القلم والاديب ، لا لشيء الا لان عنصـــر المعرفة كان يعوزه . وآل امره الى ذلك القنوط الذي سحق نفسه ودفع به الى شكاوى جوفاء في بكائيات لا طائـــل تحتها دار بها على حظ الاديب في الشرق وعلى اليأس من الاصـــلاح في الشرق !

مع ان المعرفة تقطع بأن الاصلاح والحرية منتصران في الشرق كله ، وفي أوطان العرب ، وتقطع المعرفة بأن الاديب في الشرق ، وفي اوطان العرب ، عظيم الحظ شريفه ، اذا هو وفى بأدبه للرسالة القومية التحررية ، فمثل الدور الذي يليق به في تربية جيل عربي كفؤ للنضال في سبيـــل التحرر القومي ، كفؤ للنصر .

رئيف خوري

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مركز الشرق العربي ببيروت

تعمل على تعميم رسالة الفكر والثقافة على اختـــلاف الوانها وميادينها وتقريبا لجميع شعوب الامة العربية ، فى سبيل نهضة شاملة تستمد غذاءها من المطالعة المهذبة الراقية التي هي طريق المعرفة والتقدم .

قائمة مطبوعات مختارة لمطالعات الشهـــر

غ.ل.		
٥..	عمدة التفسير ثان	تحقيق احمد شاكر
١٠٠٠	تفسير الطبرى ثامن	تحقيق محمد شاكر
١٦..	الروم جزءان	للدكتور اسد رستم
٢..	اكابر	للاستاذ مخائيل نعيمة
٢..	قصة الهلهل	للاستاذ جوهر وشركاه
١٢.	محمد عمر التونسي	للدكتور ع. العزيز ع. المجيد
١٢.	الكابتن كوك	للاســـتاذ محمد ع. حســـن
١٥.	العشق الالهي	للشيخ داوود الانطاكي
٢٥.	دموع ابليس	للاستاذ فتحى رضوان
١٥..	تاريخ اسبانيا الاسلامية	تحقيق ل. برفسنال
٢٧٥	فن الشعر	الدكتور احسان عباس
١..	غرائب مغامرات ابي الفوارس	من مجموعة قصص فارسية
١..	الطابق الطائر	من مجموعة قصص فارسية
١..	الاسئلة الثلاثة	من مجموعة قصص فارسية
١..	اليد السوداء	من مجموعة قصص اسبانية
١..	اسطورة السيد	من مجموعة قصص اسبانية
١..	شارلمان فى اسبانيا	من مجموعة قصص اسبانيـــة

يمنح حسم خاص قدره ١٠ ٪ لكل من يشتري لزوم مكتبته المنزلية ما ينقيه من هذه القائمة بقيمة ١٠ ليرات لبنانية .

تطالب هذه الكتب من توكيلات المؤسسة

فى لبنان : من دار المعارف بـــيروت

بناية العسيلي السور ـ المدخل من جهة المالية الطابق الاول ص.ب ٢٦٧٦

فى سوريا : مكتبة اطلس ـ جادة الصالحية ـ دمشق

فى العراق : مكتبة المثنى ـ شارع المتنبي ـ بغداد

ومن جميع المكتبات الشهيرة .